فلسفة الفاشية

لعلي أدهم

﴿ نظرة عامة ﴾ كان مفكرو اليونان يرون ان الحياة الفاضلة لا تتيسر اسبابها وتستوفى شرائطها وتتكمل عناصرها الا في كنف الدولة ، وان الدولة هي اقوى الذرائع واقرب السبل الى تحقيق تلك الحياة وتمهيد مقدماتها ، وكانت الاخلاق في رأيهم مرتبطة بالحياة العامة متصلة بالسياسة ، وتصورهم للدولة ووظيفتها يجب ان يكون مقرون الاخلاقي ويمتزج بادراكهم للفضيلة ، ثم جاءت المسيحية فباعدت بين الاخلاق والسياسة وصرفت عناية الانسان الى العالم الآخر ووجهت جهوده الى الحرص على استنقاذ الروح من مفاتن الحياة ومغريات الحواس واغرت النفوس بالزهادة والاستهانة بامور الدنيا واحوالها المتقلبة الفانية ، وعند عهد احياء العلوم قطعت الصلة بين التفكير السياسي والتفكير الاخلاقي وسار كل منهما في طريقه واول من اعلن انفصالها في جراءة وصراحة هو مكيافلي في كتاب الامير

وقد عادت السياسة الى الاقتران بالاخلاق في العصور الحديثة ويتجلى ذلك في المذاهب السياسية السائدة التي تناوىء الديمقراطية واخصها الفاشية والشيوعية

ولنظرية سيادة الدولة المطلقة هي اكبر ينابيع الفاشية واقوى اصولها واعمق دعائمها ، والفاشية الى حدّ كبير تحقيق عملي لتلك النظرية ، ويزعم شراح المذهب الفاشي ان الفاشية ليست نظرية للدولة فحسب ، وانما هي رأي في طريقة الحكم وموقف لحياة ونظرة خاصة للكون والمجتمع واسلوب مستحدث في علاج مشكلاته وتفريج ازماته وليست هي مقتصرة على نبذ الديمقراطية والقضاء على الاشتراكية وانما هي في منزلة بعث جديد للروح الانسانية

والمذهب الشيوعي لا يغالي في ادعاءاته الاخلاقية الشاملة كما تفعل الفاشية ، ولكنه مع ذلك يتطلب نظراً معيناً للاخلاق ، والشيوعية تجد اصلوباً خاصاً للحياة وترجحه وتؤثره على غيره وتدعو الى الاخذ به والسير بمقتضاه ، ورأيها مستمد من التصور الشيوعي للمجتمع وطبيعة القوى التي تحرك التاريخ وتؤثر في الحركات الاجتماعية ، ومسائل الأخلاق تبحث عند الشيوعيين

من ناحية علاقتها بالعوامل السياسية والاعتبارات التاريخية والظروف الاقتصادية

وكلا الشيوعية والفاشية يفرض على الأفراد الشيوعيين — او الفاشيين — ان يعيشوا على نهج خاص واسلوب يزيد رفعة الدولة ومجدها ، وعليهم ان يعلنوا محاسن ذلك الاسلوب وينشروا مزاياه وينشروا به ، وهم في سبيل ذلك لا يحجمون عن ايذاء مخالفيهم واضطهادهم ؛ والشيوعية والفاشية فلسفتان عمليتان ومثل هاتين الفلسفتين قد يحتمل المعارضة ويقمع صدره المناقشة في ساحات التفكير وميادين البحث ، ولكن عند مايدين بمبادئه حزب من الاحزاب ويصل عن طريقها الى مراكز الحكم ومقاليد السلطة ومعاقل النفوذ يصبح لا يحتمل المعارضة ولا يطيق المناظرة

والشيوعية والفاشية — على نقيض الديمقراطية والفردية — يميلان الى توحيد السياسة والاخلاق ويحاولان ان يجعلا الوطنية قوة ايجابية فعالة عاملة على تحقيق المثل العليا والغايات المنشودة ويتطلعان الى القضاء على كل الاحزاب والشيع التي تخالفهما في الرأي وينكران عليها كل حق من حقوق التعبير عن آرائها ، وغايتهما ان يصيرا عقائد شاملة مستوعبة لنواحي الحياة جميعها مسيطرة على كل فكرة وكل عاطفة وبذلك تصير السياسة والاخلاق شيئاً واحداً

ونظرية الفاشيين في الحكومة هي نظرية سيادة الدولة المطلقة ، فالدولة اعظم من الفرد وحقها في الوجود يفوق حقوق الافراد ويسمو عليها ، والدولة غاية تبغي طلابها وواجب الافراد معاونتها على اداء تلك الغاية ، وهو شخصيتهم وتضحي ملكاتهم رهن بالمشاركة في النهوض بذلك الواجب ، وخدمة الدولة تسمو بالفرد وترفعه الى الذروة وتحلق به فوق المآرب الشخصية وهي لا تجعل الفرد عبداً وانما تمنحه الكفاح والعدوان وتأكيد النفس والاعتزاز بالشخصية في سبيل خدمة الاغراض السامية ، وطاعة الزعيم تربأ بهم عن الانغماس في الصغائر والاستغراق في الانانية والغرور

والدولة عند الفاشيين ليست مدينة للفرد بشيء لانها اسمى منه والكفة بينهما غير متساوية والمقام متفاوت ؛ بل هي منبع كيان الفرد واصل آدابه ، وهي حرة من الالتزامات الادبية مع غيرها من الدول لانها قوة لا يتطاول اليها احد ولا يسامیها انسان وهي من ثم لا تقبل الخضوع لعصبة الامم . والنظام الفاشي او الشيوعي يتطلب الحجر على حرية الفكر وحرية النقد وحرية الخيال لأن هذا الحجر في زعمه لصالح الدولة ومصالح الدولة هو ما تريده الارادة العامة اي « الارادة الحقيقية » للشعب وهذه الارادة يفسرها في المانيا اعضاء الحزب الوطني الاشتراكي وينطق عن لسانها في ايطاليا الحزب الفاشي !

﴿ تعليل ظهور الفاشية ﴾ — يرد بعض الباحثين اسباب ظهور الفاشية الى ظهور حالة عاطفية جديدة مصدرها ان العالم الحديث فيه رجال كثيرون لهم همة ماضية وعقول ثاقبة ولكنهم لا يجدون مجالاً لهمتهم ولا ميداناً لتدريب مواهبهم وهم من ثم تائقون الى النفوذ والقوة ولا يحجمون عن

استطاع القسوة لبلوغها ، وقد سلبهم العصر الحديث قوتهم وغمطهم حقهم وفوّت عليهم فرص النجاح ، وشلّ حركة القادرين على الابتكار والتجديد وقيد نشاطهم وأوصد في وجوههم ابواب المغامرة والمخاطرة وسلط عليهم الملل والسأم ، وامثال هؤلاء يجدون في الفاشية خير منقذ

ويرى البعض في الفاشية بديلاً من الذين في عصر وهت فيه العقائد وضعف سلطانها على النفوس ودالت دولها ، والطبيعة تكره الفراغ فيحبب ان تحل الفاشية محلها وتقوم بمهمتها

ويعلنها البعض بأنها ثورة على الحضارة ، وذلك لان حركة التقدم تحدث ضغطاً على العقل وتستحثهُ على ان يلائم بين نفسه وبين الوسط المتجدد ، وهذه الملاءمة تستدعي لذلك كيحاً من ناحية وطول احتمال لافكار جديدة واساليب لا عهد له بها ، من ناحية اخرى ، وعندما تسرع حركة التقدم ويشتد ضغطها يبدأ الذين يشعرون بنقصهم وتخلفهم أزاء ذلك التطور المتابع للتقدم المستمر يحدون النعوتين البارزين ويتولد في نفوسهم الميل الى رد فعل لايقاف ذلك التقدم واعتراض سيره والعودة الى اساليب ادنى الى البساطة وأيسر للفهم وأقرب الى الظهار الشجاعة والاقدام والطاعة والثقة بالحكام ، وهكذا عندما يفوق تطور الحضارة مقدرة الانسان على التكيف بحسب الاحوال الجديدة يصبح خطر العودة الى الاحوال القديمة والطرق المهجورة ماثلاً ويشتد كره المستوى العالي والحياة المركبة المعقدة ويبدو ذلك في صور مختلفة منها صورة الرغبة في الاحتفاظ بالتقاليد القديمة والعودة الى أساليب الحياة البسيطة الساذجة ومحاولة الحرص على مقاومة الشعب والعمل على استئصال الفساد السياسي والانحلال الاخلاقي

ويعلن الشيوعيون الفاشية بأنها آخر مرحلة من مراحل النظام الرأسمالي ، وهي في عرفهم رأسمالية عجزت عن اجابة مطالب العمال ومواجهة قوتهم الثانية دون أن تهدم أساسها وتكشف عن زيفها ولذلك خلعت عن وجهها النقاب وأعرضت عن ادعاء الديمقراطية السياسية

اما انصار الفاشية فيفسرونها بأنها يقظة جديدة وبعث للروح ، ويشبهونها بنهضة احياء العلوم ووجهة نظرهم ان اوربا قد استولى عليها منذ عهد الحضارة القديمة تياران فكريان ، احدهما تيار الفكر اليوناني والآخر تيار الفكر الروماني ، فالتيار اليوناني هو الذي عمل على تقوية التفكير وشجّع نزعة الشك واوحى الميل الى التجربة وألهم الفردية ، والتيار الروماني هو الذي أوحى الولاء وحب التعاون الاجتماعي والرغبة في النظام واحترام التقاليد ، وقد أعاد عصر احياء العلوم للقيم اليونانية مكانتها ورد عليها سالف قوتها لانهُ هو الذي بدأ عهد حرية التفكير وأعاد في عالم البحث طريقة التجربة والاستقراء التي انتهت بانتصار العلوم من ناحية وتحطيم الاديان من ناحية اخرى ، وبدأ في عالم السياسة عهد الديمقراطية والحرية والمساواة وأوجد فكرة أن الحكومة هي وسيلة لاسعاد الفرد ، ولم تجد الروح اليونانية كابحاً فتطوحت وتمالت حتى أشاعت الفوضى

في الآداب والسياسة وعصفت بأيقين وثمرتها المرة هي الشيوعية والفوضى في المسائل الجنسية والكفر والتمرد وقد استلزم ذلك العودة إلى حركة بناءة في السياسة والآداب ترجيح جانب التيار الفكري الروماني . وقد تحققت هذه الحركة في الفاشية لأنها عودة الى الفضائل الرومانية ، فضائل الولاء والنظام ، وهي لا تعنى بتقدم الفرد وانما تعنى بالتضامن الاجتماعي ، والمثل الأعلى عندها ليس هو العالم في معمله ولا المفكر في مكتبه وانما هو المجاهد الشجاع الصبور الذي يسحق أهواءه ويغالب شهواته ويتعبد في تدينه ويدافع عن الضعيف ويناضل عن الحق ويتصدر للقلائد ويذود عنها ، ورجل العمل عند الفاشيين أقرب الى فهم الحياة وادراك كنهها من المفكرين لان المفكر يفهم الحياة عن طريق العقل والتحليل في حين ان حقائق الحياة الحيوية انما تفهم بالبداهة الموفقة والألمعية اللامعة ، والفلسفة الفاشية لا تعول على العقل وانما تعتمد على الغريزة والايمان والحياة في نظر الفاشيين تحدّ دائم وجهاد متصل يرهف الحواس ويشد أوتار الاعصاب ويشحذ الهمة ويثري بحب المخاطرة ، وليست السعادة عند الفاشيين هي غاية الحياة وانما غايتها المجد والكفاح

﴿ آباء الفاشية ﴾ من المفكرين الذين مهدوا السبيل للفاشية والنازية الفيلسوف الالماني نتشه ، فقد كان يرمي الى ضم صفوف الالمان لمقاومة نابليون وحاول ان يثير الشعور القومي وان يعزّز في النفوس الولاء للوطن فذهب الى أن التربية يجب ان تتجه الى تنشئة الشعب الالماني على منوال يوحد أفكاره وأمانيه ، وأشار الى ان الوسيلة الوحيدة لذلك هي التدريب العسكري والنظام الحربي ، فكل فرد يلزم ان يخضع لهذا النظام ويتناول بهذه الطريقة ، والوطن في زعمه رداء الأبدية وعلى الافراد ان يجودوا بأنفسهم في سبيله ، وهو يقسم الناس الى قسمين كبيرين وهما النبلاء وغير النبلاء ، وغير النبلاء انما يعيشون ليخدموا النبلاء ويلبوا مطالبهم وينقادوا لهم ، وميزة النبيل قوة الارادة ومضاء العزم والارادة عنده أساس الرجل ومحور الشخصية ، وجميع ضروب الفاشية تقوم على اكبار الارادة والاشادة بها ، والارادة في رأي الفاشيين هي العامل الحاسم في التاريخ . ولكن الى أي غرض يوجه الرجل الأسمى ارادته ؟ يرى نتشه ان الرجل الاسمى انما يوجه ارادته الى عمل الخير ومصلحة الشعب ونفع الوطن وقد جاء بعده نيتشه ليؤكد ان القوة في ذاتها هي غرض الرجل الاسمى

ونيتشه ينكر المساواة ويرى ان البشر غير متساوين وهو يهاجم آداب المسيحية في شدّة وقسوة ، وعنده ان التواضع والخشوع من آداب العبيد ، وان الانسانية والعطف والرحمة من علامات الضعف ، وهو من أجل ذلك يعتبر المسيحية ديانة الضعف وهي تؤكد للفاشلين في الدنيا أنهم سيظفرون بالسعادة في العالم الآخر وتقاوم صفات الرجولة والكبرياء وتأكيد النفس ،

والواقع ان نيتشه في تفكيره الاخلاقي قد تأثر بتصور دارون للانتخاب الطبيعي وتنازع البقاء، وقد ذهب دارون الى ان البقاء للانسب فجاء نيتشه واستنبط من ذلك حكمة اخلاقية فقال ان الانسب يجب ان يبقى اي انهُ حاول ان يستخرج قانون الاخلاق من نظرية التطور، ومن طبيعة الآداب القائمة على اساس هذه النظرية انها ترى ان الصالح هو ما ساعد على التطور وان الشر هو كل ما عاق حركة التطور ومن طبيعة الحياة انها تحاول على الدوام ان تفوق نفسها وان تخرج صوراً ارقى واكمل من ناحية الصفات العضوية ومن جانب الاخلاق ولكن كيف يعرف التفوق الاخلاقي والسمو الروحي؟ سمات الامتياز الاخلاقي والنبوغ الروحي هي رغبة الفرد الممتاز في ان يخضع لارادته الغير وانما ظهرت الديمقراطية لمقاومة ذلك وعكس آيته وابدال سنته وحب القوة عند نيتشه هو اقوى العواطف، وقد يكون الانسان موفور الصحة وفي نعمة سابغة ولكنهُ يظل مع ذلك تعساً محروماً لأنهُ ظامئ الى القوة متطلع الى النفوذ والسلطان، والميل الى القوة هو الزلزال الذي يهدم الفاسد ويعثر القبور، واعلاء ارادة القوة وتمجيدها أدى بنيتشه الى تصور نوعين من الآداب آداب السيد الذين يمقتون القوة وعدم المساواة وآداب العبيد التي تعتبر القوة هي غاية الحياة ومحور السيادة على طلب الاستزادة من القوة وتقوية الصفات التي تعين على تحصيلها، وعنده ان الفرق بين الخير والشر معناه الفرق بين النبل والضعة في حين انهُ عند العبيد هو الفرق بين النافع والخطر، وآداب العبيد في رأيه آداب ضعة، وكما ارتقى الانسان وجاوز مستوى الفردة كذلك سيرتقي الانسان الاعلى ويسمو على مستوى الانسانية والانسان الاعلى هو هدف التطور وغايته، ويمتدح نيتشه الكفاح والتلاب، وقد كان يجل ويمتدح الحرب ويكبر من شأنها لأنها تزيد الدولة قوة وبأساً ونفوذاً، أما نيتشه فانهُ يمتدح الكفاح لأن الشجاعة وقوة الارادة ومضاء العزيمة هي فضائل الانسان البارزة، والكفاح يستلزم الشجاعة ويقوي الارادة ويهيء الفرصة للرجل القوي ليظهر قوته وتفوقه وقد التفت لذلك مكيافلي فأوصى أميرهُ ان يجعل فن الحرب واجبه وشغله الشاغل لأنهُ علم الذين يباشرون صناعة الحكم، والحرب عند نيتشه دواء ناجع للامم المستضعفة الواهنة اذا كانت تحرص على الحياة وترغب في البقاء

وقد سار في غمار نيتشه جماعة من كتاب الالمان رددوا هذه النغمة وأطالوا فيها واسرفوا اسرافاً لامزيد عليه في طليعتهم تريتشكه وبرناردي، وكل من يقبل آراء نيتشه ونحت يصح ينتقد بقبل نفسه وسموها، والفاشية تملي الارادة وتمجد القوة وتقسم الناس الى فريقين فريق من حقه ان يسعى الى القوة وفريق ينقصه قوة العزيمة فواجبه طاعة الأقوياء والانقياد لهم وخطب الفاشيين وأحاديثهم ورسائلهم تمجد على نبذ فضائل المسيحية والاخذ بالآداب الوثنية